التلميح في شعر أبي تمام

دراسة أسلوبية تحليلية

د٠ فيصل محمد حسن العسيري (*)

المقدمة:

الحمد لله حمدا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد؛

فيعد التلميح من فنون البديع التي تزيد الكلام رفعة وشرفًا ومنزلة سامقة، وهو يقع في الكلام موقعا بليغا، يربط المتلقي بمثل سائر، أو قصة شهيرة، أو شعر شاعر، أو خطبة، أو غيرها من بدائع نظم العرب ونثرها.

وهو سمة شعرية بديعة، كلما زاد في قصيدة، كانت القصيدة أشبه بالقصيدة التاريخية التي تمزج بين غرضين؛ غرض الشاعر من قصيدته، والإشارات التاريخية التي تربط المتلقي بأيام العرب وأمثالها وتشبيهاتها وقصصها؛ مما يجعل ذهن المتلقي يجول في تاريخ العرب وأيام؛ وهو ما يجعلنا نسلط الضوء على قصيدة تاريخية، تكشف عن براعة الشاعر في التكييف والربط والإحالة.

كل ذلك تسعى الدراسة إلى تناوله في طيات شعر أبي تمام، مع محاولة دراسة الإشارات التلميحية، ودورها في الثراء المعرفي، وكشفها عن قدرة الشاعر

(*) أستاذ البلاغة والنقد المشارك بقسم اللغة العربية – كلية التربية بجامعة الأمير سطام ابن عبدالعزيز .

على الربط بين الأحداث، والربط بين الغرض الملمح به والثراء المعرفي بقصص العرب وأمثالها وأيامها وأشعارها.

وبعد التتبع لمواطن التلميح في الدراسات البلاغية والأدبية والنقدية واللغوية؛ وجدت جلَّ هذه الدراسات تتناول التلميح من زوايا متعددة:

تقرن كثير من الدراسات والبحوث التلميح بمعناه اللغوي العام الذي يربط مصطلح التلميح بالإشارة إلى أمر قد يخفى على المتلقي من الدلالات المحيطة بالكلام البليغ، أو تربطه بالكناية والتورية في الخطاب العربي.

دراسة التلميح كفن بديعي بلاغي موجز شأنه شأن أحد فنون البديع، ويُربط بينه وبين التضمين والاقتباس والسرقات الشعرية كثيرا،(١) وأهم هذه الدراسات "التلميح بين براعة التوظيف وثقافة المبدع والمتلقي"، لرامي محمد الرجب، وهي دراسة موجزة، تناولت كما هو موضح في عنوانها قدرة المتلقي والمبدع على استنتاج الإشارات التراثية في الشعر أو النثر، وهي مقالة موجزة تحدثت عن شأن التلميح في كتب التراث، ومواطن وروده فيها، وهي دراسة نشرت في مركز البحث العلمي، بجامعة الجنان اللبنانية، وبعد قراءتها وتأملها؛ وجدت أنها لا تفي بالغرض الذي جاء من أجله هذا البحث، ولا تحل الإشكال الذي قامت عليه هذه الدراسة.

وبعد تتبع ودراسة لمواطن التلميح في شعر أبي تمام؛ وجدت أن التلميح متسع الدلالة والأفق، يحتاج إلى تناول من عدة أطر، وبصور شتى، ومن زوايا بحثية متعددة، تثري هذا اللون البديعي، وتكون منه مادة أدبية ونقدية تساهم في الرقي بالأدب والأديب.

---

(١) انظر: جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، دار هنداوي، المملكة المتحدة، ط١: ٢٠١٩م: ٤٠١، والبلاغة فنونها وأفنانها، فضل حسن عباس، دار الفرقان، الأردن، ط٢: ١٤٢٨هـ، وغيرها.

كل ذلك جعل هذه الدراسة تسبرُ صور التلميح وألوانه ومراتبه وأنماطه، والتي من خلالها تسهم في معرفة قدرة الأديب في نظم الأبيات وربطها بالأحداث التراثية، والمعاني الشعرية وغير الشعرية عند العرب وغيرهم، وقدرة الأديب على توليد المعاني وابتكار الصور الخيالية، أو تصوير المعاني بصورة جديدة مستحدثة، أو غيّر معناها من معنى حسن إلى معنى أكثر حسنا، أو معنى قبيح إلى معنى جميل.

وقد تضمن البحث مقدمة، وتمهيدا، ومبحثين؛ تناول المبحث الأول مراتب التلميح من حيث الوضوح والغموض والاشتراك بين فنين بلاغيين في صنف واحد، وتناول المبحث الثاني صور التلميح في التراث العربي وأشكاله، كالتلميح بلفظ، أو بيت شعري، أو معنى من معاني العرب وغيرها؛ مما سيظهر في صفحات هذا البحث.

أما الإجراء البحثي في هذه الدراسة، فقد سلكت الإجراء الاستقصائي التتبعي والتحليلي؛ حيث تقوم الدراسة بالربط بين الصورة المستوحاة والصورة التي يقصدها الشاعر في شعره، ثم دراستها دراسة بلاغية تحليلية.

آمل أن تُظهر الدراسة جمال التلميح في شعر أبي تمام وصوره وملامحه، وأن تحقق نتائج تثري المكتبة البلاغية والنقدية، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيد

التلميح فن بديعي يقع في الكلام موقعا بليغا، يربط المتلقي بمثل سائر، أو قصة شهيرة، أو شعر شاعر، أو خطبة، أوغيرها من بدائع نظم العرب ونثرها.

والمتأمل لهذا اللون البديعي من كلام العرب في نظمها ونثرها يجده يمزج بين لونين بلاغيين، وسمة شعرية يحسن أن أسلط الضوء عليها في هذه الدراسة؛ اللونان هما: المزج بين الإلماح بزيادة المعنى، والإطناب فيه، والمجاز بضرب المثل، أو التشبيه والاستعارة، أو الكناية والتعريض، أو التورية والإيهام، وغيرها.

وهو سمة شعرية بديعة، كلما زاد في قصيدة، كانت القصيدة أشبه بالقصيدة التاريخية التي تمزج بين غرضين؛ غرض الشاعر من قصيدته، والإشارات التاريخية التي تربط المتلقي بأيام العرب وأمثالها وتشبيهاتها وقصصها؛ مما يجعل ذهن المتلقي يجول في تاريخ العرب وأيامهم، وهو ما يجعلنا نسلط الضوء على قصيدة تاريخية تكشف عن براعة الشاعر في التكييف والربط والإحالة.[1]

وإذا ما تأملنا في التلميح أكثر، وجدنا الإيجاز بضرب المثل، أو التشبيه دون تفصيل، أو إشارة مباشرة، إنما يترك الأمر للمتلقي بالبحث عن المعنى، وتكييف الغرض البلاغي من حيث نوع المجاز؛ هل هو مجاز بسيط أم مركب؟

كل ذلك تسعى الدراسة إلى تناوله في طيات شعر أبي تمام، مع محاولة تسليط الدراسة على الإشارات التلميحية، ودورها في الثراء المعرفي، وكشفها عن قدرة الشاعر على الربط بين الأحداث، والربط بين الغرض الملمح به.

---

(١) انظر: الإيضاح، ٧٠١/٤، جلال الدين الخطيب، محمد خفاجي، بيروت، لبنان، دار الجيل، ط٣، ١٤٣١هـ.

والتلميح في لغة العرب: هو مصدر لمّح ، والإشارة إلى شيء، وأشار إليها أو ألمح في كلامه إلى حاجته، وألمح الشيء إليه: اختلس النظر إليه، وهو معنى قريب من المعنى الاصطلاحي.

وعُرف التلميح في اصطلاح البلاغيين: بأن يشير الشاعر والناثر إلى قصة مشهورة، أو بيت شعر حفظ بتواتره، أو آية قرآنية، أو حديث شريف ومثل سائر، أو قول شائع يجري مجرى المثل في كلام دون إيراد أي تفصيل أو إيضاح.(١)

يقول الدسوقي: التلميح "بتقديم اللام على الميم من لمحه إذا أبصره ونظر إليه، وكثيرا ما تسمعهم يقولون: لمح فلان هذا البيت، فقال كذا، وفي البيت تلميح إلى قول فلان" (٢)؛ أي: إشارة إلى قول أو مثل أو بيت شعر...

فالمعنى المجازي موافق للمعنى الاصطلاحي في دلالة الإشارة أو الإيماء إلى أي أمر ما، مع الإلغاز وعدم التصريح به، إنما يلمح في طيات الحديث.

وورد التلميح بمسميات عِدَّة هي: التلميح، والتمليح (بتقديم الميم على اللام)، وحسن التضمين، والاقتباس.(٣)

أما التلميح، فهو بمعنى الإتيان بالشيء المليح، كما في التشبيه والاستعارة، وهو عام في دلالته إلا أنه ليس كل تمليح تلميحا؛ فالتلميح بمعناه الاصطلاحي

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة، يحيى العلوي، المكتبة العصرية، بيروت–لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ، ٣/ ٩٧، والإيضاح، ٤/ ٥٨٧.

(٢) انظر: حاشية الدسوقي، ص٢٧٧.

(٣) انظر: الإيضاح، ٤/٧٠٠، وتحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ابن أبي الإصبع العدواني، ت: حفني شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة– مصر، د– ط، ١٣٨٣هـ، ص١٤٠.

أدق دلالة ومعنى، قال العلوي في الطراز: "ولو قيل في لقبه التمليح بتقديم الميم على اللام، لكان حسنا جيدا مطابقا الاشتقاق، يقال: ملحت القدرة وأملحتها وملحتها فملح وأملح...، والمعنى في تلقيبه بهذا اللقب أنه إذا أشار إلى قصة نادرة، أو بيت حسن، أو مثل سائر، فقد ملحه وزاد في حسنه، كما يزيد الملح في حسن الطعام ومساغه، فهذا الاشتقاق يكون سائغا ويلقب به"(١).

أما التضمين والاقتباس، فهما أن يضمن الشاعر شعره شيئا من القرآن، أو السنة، أو شعر العرب، حتى ينبهك عليه،(٢)، والفرق بين التضمين والاقتباس من جهة والتلميح من جهة أخرى: أن التلميح يكون بالإشارة إلى مثل، أو بيت شعر، أو قضية معروفة، دون التنبيه عليها، أو إبرازها في ثنايا الكلام، يقول الشاعر:

المسْتَغيثُ بعَمْرٍو عنْدَ كُرْبتِهِ كالمستغيثِ من الرمضاءِ بالنَّارِ(٣)

فالشاعر ألمح إلى قصتي عمرو بن الحارث وصنيع كليب به، عندما استجار به(٤)، دون أن يعرف المتلقي مقصد الشاعر بعمرو والاستغاثة، إنما عرفت من قصد الشاعر خلال القصة المشهورة عن العرب وأيامهم.

فقوله: (كالمستغيث من الرمضاءِ بالنَّارِ)، إلماح وإشارة إلى قصة ومثل عربي دون الإشارة إليهما في طيات الكلام، إنما لمح من مضمون البيت ومعناه.

---

(١) الطراز، ٣/ ٩٨.

(٢) الإيضاح، ٤/ ٦٩٥.

(٣) ينسب البيت لابن الكلاب الضبعي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ٣٢٣/١، عبد القادر البغدادي، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ.

(٤) انظر: معجم البلدان، ٤/ ٣٦٨، شهاب الدين ابن الحموي، دار صادر، بيروت– لبنان، ١٩٩٥م.

فهذا الفن البديع يضفي على البيت الشعري حلاوة وبراعة بطرق فنية دقيقة في تأليف النص ودراسته؛ حيث يجمع بين غرضين بلاغيين بطريقة مبتكرة تشبيها، أو كناية، أو تعريضا، أو استعارة، أو استطرادا، شعرا كان أو نثرا.

والتلميح والإشارة من فنون الإيجاز والإلغاز والتعبئة والإيهام والتورية والكناية والتعريض...، وهو تابع لغرض الشاعر من ذكر الملمح به، وربطه بنظمه أوغرضه من القول، وهو يتفاوت من حيث الظهور والخفاء والإلغاز في النظم.

**

المبحث الأول

مراتب التلميح في شعر أبي تمام

ذكرت في الصفحات السابقة أن التلميح له عدة مظاهر، وهي: التلميح إلى مثل سائر، أو بيت شعر، أو قصة، وغيرها، لكن الإشارة التي يلجأ لها الناظم، ويصوغها ببراعته وقدرته النظمية وخياله الخصب، منها ما يكون لأمر ظاهر ذائع الصيت، ومنها ما يكون لأمر أقل وضوحًا من المرتبة الأولى، ومنها ما يكون لمعنى من المعاني التي يلجأ إليها الأديب ولا تظهر ملامحها إلا بعد طول تتبع أو اتساع أفق المتلقي ليعرف المعنى، ومنها ما يكون بمثابة الإلغاز؛ أي: يلغز الأديب في قوله قصدا كما سأبينه في الصفحات الآتية، ومنه ما يكون كناية عن معنى أو خلاف مقتضى الظاهر، كتشبيه حالة بحالة، ووجه الشبه المقصود ليس مشابة المشبه للمشبه به في أمر ما، إنما يراد به كناية عن مدح أو ذم أو فخر وغيرها مما سيظهر خلال التحليل النقدي للأبيات.

كل هذه الأنواع والمراتب لا تفاضل بينها من الناحية البلاغية؛ إنما ترتفع مرتبة بلاغة التلميح بإجادة الناظم في توظيف التلميح في نظمه، وحسن سبكه وتصويره للمشهد الذي يقصده، وأول هذه المراتب:

أولا: التلميح بأمر ظاهر ومعلوم للمتلقي:

وهو أن يأتي التلميح ويعرف من أول وهلة؛ أي: شهرته وانتشاره ومعرفة المتلقين للملمح به، إلا أن المتلقي يعمل الذهن في تفسير مقصد الناظم وتفسير غرضه، فالأديب يشير إلى أمر خارج النص تشبيها، أو تعريضا، أو كناية، أو

استعارة، أو تورية، أو تصريحا بأمر دون الالتزام بذكر المشار إليه، وإنما يُلمِح له إلماحا.

قال أبو تمام في المدح:

وأجل من قس إذا استنطقته رأيا وألطف في الأمور وأجزل(١)

مدح الشاعر أبا الوليد الإيادي بأنه أبلغ من قس بن ساعدة الذي عرف بفصاحته وبلاغته، حتى أصبح مثالًا للفصاحة والبلاغة، وهو هنا يلمح إلى شخصية تاريخية، عرفت ببراعة الكلام وجماله، وهو من الإلماح البسيط المشهور في أوساط العامة والخاصة؛ حيث فضل ممدوحه على قس في منطقه ورأيه مبالغة في المدح، وهي عادة الشعراء؛ فقد يجمع الشاعر بين بساطة التلميح وبساطة الأسلوب بالتفضيل بين معنيين والتلميح لأحدهما.

وقال أبو تمام يمدح قومه في عزمهم وقوتهم وإقدامهم:

وقسمتنا الضِّيزى بنجدٍ وأرضِها لنَا خطوة في عرضِها ولهم فتر(٢)

(قسمتنا الضيزى) مأخوذة من قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ إِذا قِسمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ {النجم: ٢٢}، وهو هنا يشير إلى معنى قسمة ضيزى، مستوحيا ألفاظ القرآن الكريم في مدح وتفضل القبائل من غير قومه، وأن هذا المدح جائر، فقومه عرفوا بالقوة والتقدم وخوض الأرض طولًا وعرضًا، بينما إقدام القبائل الأخرى غالبًا ما يوصف بالفتور.

---

(١) ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي، ت: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ ، ١/ ٢٥، وشرح ديوان الحماسة، أحمد الأصفهاني، ت: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان– ط١، ١٤٢٤هـ،٣/ ٤٩.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٣٢٦، وشرح الحماسة، ٤/ ٥٧٨.

والإلماح في البيتين السابقين إنما هو مباشر جدا وواضح لمن له أدنى حظ من المعرفة والأدب، وهو نوع من الإشارة بديع، يستخدمه كثير من الأدباء في نظمهم، ويختلف باختلاف سياق الخطاب، وموضع الشاهد، وبراعة الأديب في توظيفه.

والتلميح في هذا النوع لم يقترن بفن بلاغي آخر، ولم يكن إلغازًا، أو توريةً، أو كناية، إنما ألمح إلى جورهم في مدح القبائل وإغفال مكانة قومه.

ولا يشترط في الإلماح المباشر أو غيره أن يكون مطابقًا للمعنى والصورة التي ألمح إليها من التراث العربي، إنما يأتي تارة موافقا لما ألمح له، ويأتي موافقا لوجه من الوجوه مع توظف الصورة للمعنى الذي يريده الأديب، أو يكون مخالفًا لما أشار إليه.

ثانيا: الجمع بين غرضين:

وهو أدق من الأول في تصوير المعنى والإشارة إليه؛ حيث يعمد الشاعر إلى الإشارة إلى قصة، أو مثل، أو معنى دون ذكر تفاصيلها مع قصده الإلماح تشبيها، أو استعارة، أو كناية، كتشبيه حالة الممدوح بحال المشار إليه.

قال أبو تمام في ذكر محبوبته:

بأبي شادن تنسمت من عي نيه يوم الخميس ريح الصدود

صار ذنبي كذنب آدم يا عمرو فأخرجت من جنات الخلود[1]

حيث شبه حاله مع حبيبته عندما هجرته بحال آدم عندما أخرج من الجنة ونعيمها بخطيئته، والجامع التحول من النعيم إلى الشقاء.

(١) المصدر السابق، ١/ ٣٠٤، شرح الحماسة، ٤/ ٣٨٣.

والمشار إليه هنا قصة خروج آدم من الجنة عندما أغواه الشيطان فأكل من الشجرة فأخرج من الجنة، فقال الله له وللشيطان: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ {سورة البقرة: ٣٥}.

والتلميح في البيت أدق وأعمق، ويحتاج المتلقي فيه إلى إعمال ذهنه؛ فالشاعر لم يكتف بالإشارة فقط، إنما ألمح إلى قصة آدم تشبيها لحاله بحال آدم عليه السلام، وجنة محبوبته بجنة الخلد، وهو ما لم يكن في الموضع الأول؛ حيث كانت الإشارة إلى اللفظ مباشرة.

ومثله قول الشاعر:

أيا ويل الشجي من الخلي وبالي الربع من إحدى بليِّ(١)

ابتدأ الشاعر بيته بمثل مشهور، نسب لأكثم الصيفي، عندما وعظَ قومه وحثهم على اتباع دعوة محمد – صلى الله عليه وسلم– وقبولها، وحثهم في ذلك وأطال، حتى قال مالك بن نويرة: قد خرف شيخكم، فقال أكثم: ويل للشجي من الخلي(٢)؛ أي: ويل للمشغول من خالي الذهن، فأصبحت مثلا.

وقد طوع أبو تمام المثل في وصف حاله مع محبوبته؛ فهو مشغول الذهن بحبها وطيفها، وقد لامه قومه على حزنه لفراقها وشوقه إليها، فقال: (ويل للشجي من الخلي)؛ ليدل على أن هؤلاء اللوام لا يشعرون بحاله، فمن لا يعاني لا يشعر بحال من يعاني، وهو من التوظيف البديع الذي استطاع الشاعر أن يوظف التراث لمعنى جديد يريده ويقصده.

---

(١) ديوان أبي تمام، ٢/ ١٧٩، ٣/ ٣٥١.

(٢) المستقصى في أمثال العرب، محمود الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط٢، ١٩٨٧م، ٢/ ٣٣٨.

هذا اللون من الإشارة يجعل المتلقي يعمل الذهن، ويبحث عن معاني ألفاظ المثل، ثم مناسبته، وقصته حتى يستطيع بيان معنى البيت وتفسير غرضه ومعناه، وتأويل الصورة الجديدة التي قصدها الشاعر.

ثالثًا: الإلماح إلى صورة أو معنى:

قال أبو تمام في وصف ناقة صالح عبد القدوس القرشي:

فمرَّتْ مثلما يمشي شهيد سويا في صـــراط مستقيم

ولولا الله يوم منى لأبــدت هواها كل ذات حشى هضيم[1]

حيث صور سرعة عدو ناقة الممدوح في طي المسافات، واستقامة سيرها بسير الشهيد على الصراط المستقيم يوم القيامة، فشبه صاحب الناقة (الشاعر) بالشهيد، وشبه سرعة سير الناقة بسير الشهيد على الصراط يوم القيامة، والإلماح في الأبيات مركب وغير مباشر، ويشير إلى صورة وردت في القرآن الكريم والسنة؛ حيث وصف الصراط بالمستقيم، ووصف سير الناس عليه في كتب التفسير والسنة وفي عدة مواضع، مما ذكر إن سير الشهيد على الصراط كسير الريح[2].

هذه الصورة المنتزعة من عدة أوجه، وصف بها الشاعر ناقة ممدوحه وحال صاحبها عند عودته من الحج مدحًا وثناء.

---

(١) ديوان أبي تمام، ٢/ ١٠١، ٤/ ٥٣٥.

(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث ٤٠١، وتفسير التستري، سهل التستري، ت: محمد السود، ط١، ١٤٢٣هـ، ١٦٢.

كما يأتي الإلماح لمعنى من المعاني، وهو أكثر انتشارًا في أشعار الشعراء؛ حيث يأخذ الخلف من السلف تأثرًا، أو قصدًا، أو إعادة تصوير لمعنى، وهو كثير في شعر أبي تمام؛ حيث يقول في قصيدته المشهورة:

السَّيفُ أصدقُ أنباء من الكتب في حدِّه الحدّ بين الجد واللعبِ(١)

فقد أشاع بعض المنجمين قولهم: إن المعتصم سيهزم في معركة عمورية، فلما انتصر جعل الشاعر يلمح إلى أن حد السيف أصدق إخبارا من طلاسم المنجمين وكذبهم، وهو كالفرق بين الجد واللعب.

وقد وافق أبو تمام في هذا البيت قول الكميت بن ثعلبة:

ولا تكثروا فيها الضجاج، فإنه أنا السيفُ ما قالَ ابنُ دارة أجمعًا(٢)

حيث هجا ابن دارة بني فزارة، فقتله رجل منهم؛ فكان حد السيف ماحيًا تمامًا ما هجا به ابن دارة بني فزارة، كالسيف الذي ذبَّ تكهنات المنجمين في فتح عمورية.

قال أبو تمام متغزلا:

لعمرو مع الرمضاء والنَّارُ تلتظي أرقُّ وأخفى منْك في ساعةِ الكرب(٣)

حيث أصبح البيت مثلا لكل من يفر من شيء إلى ما هو شر منه؛ حيث دارت حرب بين بكر وتغلب ٤٠ سنة بسبب ناقة، وما فعل الجساس وعمرو في كليب حتى قيل: " أشأم من البسوس" (٤)

---

(١) ديوان أبي تمام، ١/٤٠.

(٢) ديوان الكميت، ص١٤٥، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار صادر، بيروت– لبنان، ط١، ١٤٣٤هـ.

(٣) ديوان أبي تمام١/ ١٧٠.

(٤) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، ت: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت– لبنان– د– ط، د– ت، ٤/ ٢٨١– ٢٨٢.

ذاك أن كليبا عقر ناقة تسمى البسوس بعد أن دخلت حمى أرضه، فهوت تشحب دما بعد ما بركت بفناء جساس بن مرة، فصاحت صاحبة الناقة: واذلاه واغربتاه! فأجابها جساس ورمى كليبا برمحه ولم يقتله، فقال له كليب: أغثني يا جساس بشربة ماء، فقال له: تركت الماء وراءك ثم ولى عنه، فأتاه عمرو بن الحارث، فقال: يا عمرو، أغثني بشربة ماء، فنزل عمرو من فرسه وأجهز عليه، فقيل البيت وأصبح مثلا(١).

وقد وظف الشاعر المثل للدلالة على معاناته وشدة بؤسه مع من أحب؛ حيث إن وقع ما حدث لعمرو وهو يتلظى الرمضاء أرق وأحنى من الساعة التي أتلهف بها عليك وأرق لأجلك، إلا أن صدودك أشد وقعا.

كما يحمل البيت على تشبيه صورة بصورة، شبه حاله مع من أحب، وشدة وقع الصدود عليه بحال عمرو عند استغاثته، وهو جريح في الرمضاء يتلظى ويطلب شربة ماء يرجو النجاة، فهو إلماح إلى القصة وإلماح إلى البيت المشهور:

المستجيرُ بِعَمْرٍو عنْد كرْبَتِهِ كَالمُستَجيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بالنَّارِ(٢)

رابعًا: الإلغاز:

والمقصود به ذكر أمر والإشارة إليه دون بيان هذا الأمر، وهو غير ذائع الصيت، أو مبهم يحتاج إلى تتبع لبيان معناه، قال أبو تمام:

هيهاتَ لمْ يعلم بأن كلَّ هوى بالصين لم تبعد عليك الصين

بل كان كالضحاكِ في سطواتِهِ بالعالميْنَ وأَنْتَ إفريدون(٣)

(١) أمثال العرب، المفضل الضبي، مكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ.
(٢) صفحة ٦.
(٣) ديوان أبي تمام، ٢/١٦٠.

وهي إلماحة جديدة بديعة؛ حيث أشار إلى أسطورة غير عربية، تجعل المتلقي يجدُّ في السؤال عن محتواها ومقصد الشاعر بها.

تقول الأسطورة التي عرفت من أخبار الفرس: إن الضحاك من ولد عدنان، أمه من الجن، وهو ملك في رأسه حيتان، وهما لا تقران حتى تطعما دماغي إنسان، فكان كل يوم يقتل رجلين ويأكل دماغهما، أما أفريدون، فهو رجل صالح، قيل: إنه نبي، وأشار إفريدون أن يجعل مكان دماغي الإنسان دماغي شاتين، ففعل القائم بهذا الأمر للضحاك ، وأغنت عن دماغ الإنسان، ولم يجرؤ أحد على إعلام الضحاك بذلك، فكانوا يأتون كل يوم برجلين، فيأمر بقتلهما، ويبعث بهما إلى مكان قاص في المدينة، ويقوم الجند بأخذ الضأن عوضًا عنهما، فاجتمع في ذلك المكان خلق كثير، وكان إفريدون منهم، فلما كثر عددهم، خرج بهم إفريدون إلى الضحاك فقتلوه، وخلص البشر من شره(١).

فالشاعر شبه بابك الذي قتله الأفشين بالضحاك في استبداده وجبروته، وشبه الأفشين بإفريدون الذي أنقذ شعبه من شر الضحاك، وهي إلماحة بعيدة، تحتاج إلى ربط بين الأحداث والوقائع لبيان المعنى الذي قصده الشاعر.

يقول أبو تمام:

ولى معاوية عنهم وقد حكمـــتْ فيه القناةُ فأبى المقدار الأمــد

نجاك في الروع ما نجى سميك في صفين والخيل بالفرسان تنجرد

(١) تاريخ الطبري" الرسل والملوك"، محمد الطبري، دار التراث، بيروت– لبنان، ط٢، ١٣٨٧هـ، ١٩٧/١.

إن تنفلت وأنوف الموت راغمة اذهب فأنت طليق الركض يا لبد[1]

فاللغز في أسطورة (لبد) الذي يقال: إنه آخر نسور لقمان عليه السلام، وكان أطولها عمرا، فنظر إليه لقمان فمات بعد ما رآه، فخالف أمر من سبقه من النسور؛ حيث كان لقمان إذا رأى أحد نسوره عاش ألف سنة بعد رؤيته، إلا هذا اللَّبد الذي مات عند رؤيته فصار رمزا للشؤم[2].

أما الشاعر، فقد وظفها للمدح، وجعلها تدل على شجاعة ممدوحة ابن يوسف الثغري؛ إذ خاض كثيرا من المعارك في الثغور، ونجا من الموت مرات عدة، بل كان سببا للنصر ونجاة جده، فدلت الأسطورة في شعر أبي تمام على طول عمر الممدوح؛ حيث أصبح مصدر تفاؤل لا شؤم.

هذا النوع من الإلماح لغز أو شبيه باللغز، يحتاج إلى تأمل وروية لفك كثير من الرموز الشعرية به، وهو ما أجاد فيه أبو تمام ووظفه توظيفا بديعا، وجعل شعره يموج بالإشارات التراثية والتاريخية العربية وغير العربية؛ مما يدل على سعة اطلاعه وغزارة معرفته.

خامسًا: خلاف مقتضى الظاهر

قال أبو تمام في تلميحه لقصة آدم -عليه السلام- عندما أخرج من الجنة، وكان سبب إخراجه عصيانه لربه، لكنَّ أبا تمام جعل في أبياته أن سبب إخراج آدم - عليه السلام- من الجنة هو:

لو فرَّ شيء قط من شكله فرَّ إذن بعضك من بعض

(١) ديوان أبي تمام، ٢٥٩/١.

(٢) انظر: تاريخ الطبري، ٩٧/٣.

كونك في صلب أبينا آدم أهبطنا جميعا إلى الأرض[١]

حيث جعل سبب الخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض كون المهجو من صلب آدم . عليه السلام . لا عصيانه الله . عزوجل . مبالغة في ذمه وشؤمه على البشرية. [٢]

فمقتضى الظاهر أن يكون الملمح به معضدا لمعنى الشاعر وقصده، أو شبيها بالأمر الملمح به، أو أن المعنى يدل عليه، لكن الشاعر غير المعنى وصرفه إلى معنى آخر، وهو أن سبب الخروج من الجنة كون المهجو من صلب آدم.

وإن كنت أرى أن الشاعر بتعليله هذا أبعد النجعة، وأبعد في ربط الأحداث، مع مبالغته في شؤم صاحبه، حتى جعله سببا في إخراج البشرية من الجنة.

وقد روي عن العرب قولهم في مواضع التحذير من الإقدام على الهلاك: (انجُ سعد؛ فقد هلك سعيد)، وهو أن سعدًا وسعيدًا شقيقان خرجا في قومهما لقتال الأعداء، وغلبت سعيدًا الحماسة فسبق، ومعه بعض قومه للقتال، وقد نصب لهم الأعداء فخًا، وأوقعوا بهم حتى هلك جميعهم إلا واحدا استطاع الفرار، وبينما هو يفر قابل سعدا، فقال له: " انجُ سعد؛ فقد هلك سعيد"[٣]. لكن أبا تمام حور معنى المثل، وجعله كناية عن المدح وتعريضا بآخرين، فقال:

بسبب أبي العباس بدل أزلنا يخفض وصرنا بعد جزر إلى مـدّ

غنيت به عمن سواه وحولت إعجاب ركاب عن سعيد إلى سعدِ[٤]

---

(١) ديوان أبي تمام، ٢/ ٣٤٨.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: الأمثال ، زيد بن عبد الله، دار سعد الدين، دمشق– سوريا، ط١، ١٤٢٣هـ، ٣٦/١.
(٤) ديوان أبي تمام، ٢٥٩/١.

وهو يمدح نصر بن بسام والي دمشق من قبل المعتصم، والشاعر يقول: إن حاله تبدل بعد قوم نصرهم، وتحول من الهلاك إلى السعادة، وحاله عندما كان يمدح غيره بحال سعيد عندما هلك، وحاله عند مدح نصر بن بسام بحال سعد في النجاة من الموت، فأحدث تحورا في المثل، وكناية عن المدح، والتعريض بمن كان يمدحهم سابقا على خلاف مقتضى ظاهر المثل.

**

المبحث الثاني

مظاهر التلميح في شعر أبي تمام

كان شعر أبي تمام غنيا بالإشارات التراثية؛ نتيجة ما سلكه الشاعر في شعره؛ فقد نهل الشاعر من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وأشعار العرب وأقوالها وأيامها ووقائعها وقبائلها وأنسابها ورجالها وديارها؛ مما يدل على سعة اطلاعه وعمق معرفته وامتلاء قريحته الشعرية بإبداع من سبقه؛ فقد كان مولعا بالقراءة وحفظ روائع العرب، حتى قيل: إنه يحفظ من الأراجيز دون القصائد ما يفوق ١٤.٠٠٠ أرجوزة؛ مما صبغ شعره بالإشارات التاريخية(١).

الإلماح إلى القرآن الكريم:

كان أبو تمام كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم وألفاظه وصوره ومعانيه حتى قيل عنه: "لا يعرف شاعر من شعراء العربية تأثر بالقرآن الكريم تأثر أبي تمام؛ فإن القارئ لا يكاد يمضي في ديوانه حتى يعثر بين خطوة وأخرى على آية، كأنما يضع نصب عينيه النقل من القرآن الكريم"(٢).

وكان استخدام أبي تمام الآيات القرآنية في شعره بأساليب مختلفة نرصد منها:

أ– الإلماح إلى الآيات القرآنية ومعانيها التي تحمل قصة أو صورة، أو تبين معنى؛ حيث كان الشاعر يلمح إلى كثير من القصص القرآني في سياق شعري،

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، ت: عصام شقيو، مكتبة الهلال، بيروت– لبنان– ط٢، ٢٠٠٤م، ١/ ١٧١٢، وتاريخ بغداد، أحمد البغدادي، ت: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ، ٨/ ٢٤٨.

(٢) أبو تمام حياته وشعره ، ص٦٧.

ويستلهم معظمها من قصص الأنبياء الواردة في القرآن الكريم، كقصة أبي بكر والنبي – صلى الله عليه وسلم– في الغار[١]، وقصة موسى– عليه السلام– عندما ذهب ليحضر لأهله قبسًا من النار في جبل الطور[٢]، وإشارته إلى عجل قوم موسى والسامري[٣]؛ حيث جعل من هذه القصة مناسبة لهجاء الأفشين المغتر بكثرة قبيلته حين أعلن كفره وتمرده على المعتصم. كما صور العجل في شعره مرة أخرى في معرض المدح لموسى بن إبراهيم حين أعلى من شأن قومه، فقال:

كأنَّهُم بالعِجْلِ ضَلُّوا حقبة وكأنَّ موسى إذ أتاهم موسى[٤]

فقد شبه حالة قوم موسى الرافقي بحال قوم موسى– عليه السلام– عندما أظلهم السامري بالعجل الذي له خوار؛ إذ ضلوا فترة من الزمن، فلما عاد موسى– عليه السلام– نهرهم، وأزال العجل، ووعظ قومه حتى أصلح ما أفسده السامري، وكذلك موسى الرافقي حينما عاد أصلح حال قومه كما أصلح موسى– عليه السلام– حال قومه تشبيها مركبا، وملمحًا للآية: ﴿وَٱتَّخَذَ قَومُ مُوسَىٰ مِن بَعدِهِۦ مِن حُلِيِّهِم عِجلا جَسَدا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]

وقد أشار أبو تمام في شعره إلى البقرة التي في سورة البقرة وربطها بمدحه للفضل بن خالد الهاشمي، كما ألمح لعدد من قصص القرآن وربطها بمدح ممدوح أو بذم شخص آخر[٥].

---

(١) سورة التوبة: ٤٠.

(٢) سورة طه: ١٠.

(٣) سورة طه: ٨٥– ٨٧.

(٤) ديوان أبي تمام، ٣٧٢/١.

(٥) ديوان أبي تمام، ٤٥٠/١، ٢/ ١٦٠، ٢٩٤/٢.

ومن صور الإلماح في شعر أبي تمام أيضا أنه يلمح إلى ألفاظ من القرآن الكريم وينثرها في نظمه؛ ليمدح أو يذم أو يصور صورة جديدة، فمن الألفاظ الواردة في شعر أبي تمام نظرة النعيم والزقوم والغسلين والمهل والقسمة الضيزى وأضغاث الأحلام والأجداث وغيرها من الألفاظ والمعاني التي تؤكد ما نذهب إليه من أن الشاعر يكاد لا يدع بيتا إلا وبه لفظ من القرآن أو معنى.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الشاعر يستوحي صورا من القرآن الكريم ويضعها في سياق جديد، ومعنى آخر، كالمشي على الصراط التي شبهها بسير ناقة ممدوحه.

ومن الإلماح غير الظاهر الذي لا يشير فيه أبو تمام إلى الملمح به صراحة، الإلماح إلى أسماء السور القرآنية وعناوينها في قصيدته، قال أبو تمام في مدح الواثق:

أَخَذَ الخلافَةَ عنْ أسنتِهِ التـــي منعتْ حمى الآباءِ والأعمامِ

فلسورة الأنفـــال في ميراثـــه آثارها ولســـورة الأنعـــامِ[1]

ففي سورة الأنفال إشارة إلى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلأَرحَامِ بَعضُهُم أَولَىٰ بِبَعض فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ {سورة الأنفال: ٧٤}، وفى سورة الأنعام إشارة إلى قوله تعالى:﴿ وَتِلكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَينَٰهَآ إِبرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَومِهِۦ نَرفَعُ دَرَجَٰت مَّن نَّشَآءُ﴾ {سورة الأنعام: ٨٣}، وقوله تعالى: ﴿وَكُلّا فَضَّلنَا عَلَى ٱلعَٰلَمِينَ﴾ {سورة الأنعام: ٨٦}، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُم خَلَٰٓئِفَ ٱلأَرضِ وَرَفَعَ بَعضَكُم فَوقَ بَعض دَرَجَٰت﴾ {سورة الأنعام:١٦٥}، فهو يلمح إلى حق العباسيين في الخلافة، كما جعل الله النبوة في

(١) ديوان أبي تمام، ١٠١/٢.

بني إبراهيم، ورفعهم درجة على العالمين، فالعباسيون أحق بالخلافة من غيرهم لأنهم أبناء عم النبي صلى الله عليه وسلم.

ب – الإلماح إلى الحديث النبوي:

استوحى أبو تمام بعض أحاديث النبي– صلى الله عليه وسلم– ومعانيها وألفاظها وشيئا من سيرته في مواضع عدَّة، كالإلماح إلى قول النبي– صلى الله عليه وسلم–: "نصرت بالرعب مسيرة شهر"[1] في مدحه للمعتصم، وأنه من سلالة النبي– صلى الله عليه وسلم–؛ حيث يقول:

لم يغزُ قومًا ولم ينهد إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعبِ[2]

فبين للمعتصم أثره في قلوب أعدائه، وما يسببه ذكره لهم من هلع ورعب، حتى إنه يتقدم ذكره جيشه فيهزم الأعداء قبل قدومه وقدوم جيشيه، كما كان محمد– صلى الله عليه وسلم–؛ ليؤكد أن المعتصم نصر بتأييد من الله– عز وجل–، فهو يحارب من أجل إعلاء كلمة الله.

ولا شك أن إلماح أبي تمام إلى الحديث إلماحة مباشرة وواضحة قريبة المعنى عند المتلقي، وهو مما عرف عند أوساط قادة المعارك.

وهذا النوع من الإلماح كثير في شعر أبي تمام، وهو كثير في معرض المدح؛ فقد مدح الأمراء والقادة والوزراء[3].

---

(١) صحيح البخاري، ت: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق– سوريا، ط٥، ١٤١٤هـ، ٢٢٨، ١/١٢٨.

(٢) ديوان أبي تمام، ١/ ٤٢.

(٣) انظر: صفحة ١٧ من هذا البحث.

كما أشار أبو تمام إلى معركة بدر وأحد وبيعة الرضوان، وربط بين استعطافه لمالك بن طوق في الصفح عمن شق عصا الطاعة، وبين عفو النبي– صلى الله عليه وسلم– عن المؤلفة قلوبهم وإكرامهم في غزوة حنين، وربط بين قتل الأفشين قائد المعتصم، وإهدار رسول الله– صلى الله عليه وسلم– دم عبد الله بن سعد بن أبي سرح [١]، وغيرها من الإشارات.

ج – الإلماح لما في الكتب المقدسة:

الإشارة إلى الكتب المقدسة كان أقل بكثير من مظاهر الإلماح إلى التراث العربي، وتتلخص الإشارات لما في الكتب المقدسة: التوراة والإنجيل، ويكون الإلماح فيها إلى قصة من القصص، أو لفظ من الألفاظ يحمل في طياته معنى، قال أبو تمام في وصف حاله وما مرَّ عليه من الشدة؛ حيث مثلها بقصة سدوم:

فإن أك حللت بدار هون صبوت بها فقد يصبو الحليمُ

ألومك لا ألوم سواك دهرًا قضى لي بالذي يقضي سدوم[٢]

حيث شكى دهره الذي قضى عليه أن يذهب إلى نيسابور، ووجد فيها خبية الأمل واليأس والتضجر من حاله، وشبه قضاء دهره بحكم قاضي سدوم الذي عرف عنه جوره وظلمه حتى قيل: "أجور من قاضي سدوم"، أو "أجور من سدوم"، وهو من قضاة قوم لوط– عليه السلام–، حبس صاحب الحق وأطلق المشكو بعدما اختصم إليه خصمان، واعترف المشكو بأن عليه للشاكي ١٠٠٠ درهم يستحقها بعد خمس سنوات، وطلب من القاضي أن يسجن له صاحب الحق خوفًا من أن يأتيه بعد خمس سنوات فلا يجده[٣].

(١) ديوان أبي تمام، ٢/٢٩٠، ٢/١١٠، ٢/٣٠٠.
(٢) ديوان أبي تمام، ٢/٥٤٨.
(٣) تاريخ الطبري، ١/٢٩٢.

وأبو تمام ألمح إلى القصة، واستوحاها، ثم صيرها لجور الدهر عليه، وهو صاحب الحق؛ إذ حكم الدهر عليه باليأس والضنك والهوان تشبيها بظالم (سدوم).

وقد ألمح أبو تمام لقصة يوشع وحبس الشمس له حتى ينتهي من قتال الجبارين قبل دخول السبت، فأبو تمام سير هذه القصة في وصف جمال محبوبته، وهي تخرج من خدرها حتى أضاءت ظلمة الليل، ثم صور نفسه، وهو يتساءل: أهذا حلم أم كان في الركب يوشع بن نون -عليه السلام-؟ تشبيها مع اختلاف السبب والصورة على سبيل الاستعارة التصريحية، وحذف المشبه وذكر لازم من لوازمه. قال أبو تمام:

فَوَاللَهِ ما أَدري أَأَحـــــلامُ نائِـمٍ أَلَمَّت بِنا أَم كانَ في الرَكبِ يوشَعُ

وَعَهدي بِها تُحيي الهَوى وَتُميتُهُ وَتَشعَبُ أَعشارَ الفُؤادِ وَتَصدَعُ(١)

كما صور أبو تمام مجموعة من الألفاظ متأثرا بما عند الكتاب من إشارات وألفاظ، كقوله في موسى الرافقي؛ حيث يشبه لحيته بلحية المسوح، كما ذكر لفظ الصلب في عدة مواضع، وصور نظارة ممدوحه وطهارة روحه بلفظ روح القدس، ووظف المعنى بطريق فيه إشارة إلى شجاعة الجند في قتال الروم، وغيرها من المواضع.

د- استدعاء النص الشعري والنثري:

وصف أبو تمام بأنه من المكثرين من استيحاء التراث الأدبي والشعري في قصائده وشعره، حتى قيل: "ما فات شيء من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأ وطالع في شعره"(٢).

---

(١) ديوان أبي تمام، ٢/١٣٠.

(٢) الموازنة للآمدي، ص٥٦.

ولعل ذلك راجع إلى ما تقدم ذكره من حرص أبي تمام على حفظ الشعر والتأليف فيه، فألف في أخبار الاختيارات من شعر الشعراء، وكتاب الفحول والحماسة، ومختارات الشعراء المحدثين ونقائض جرير والأخطل(١)؛ مما جعله يجنح كثيرًا إلى معاني الشعراء قبله وصورهم، ويصورها بنمط جديد ولون مبتكر.

ويمكن إجمال صور الإشارة في شعر أبي تمام في الآتي:

الإلماح إلى أقوال الشعراء وأبياتهم، قال ملمحا بامرئ القيس:

من المعطيات الحسن والمؤتياته مجلببة أو فاضلًا لم تجلبب

لو أن امرأ القيس بن حجر بدت له لما قال مرا بي على أم جندب(٢)

فقد عرض الشاعر بامرئ القيس، وذكر اسمه، ولمح إلى قصته مع محبوبته أم جندب، والغرض من التلميح بيان شدة جمال محبوبته وتفوقها جمالًا على أم جندب، حتى لو أن امرأ القيس رآها لما قال في أم جندب ما قال:

خليلي مُرَّا بي على أم جندب نقصُّ لبنات الفؤاد المعذب(٣)

كأن أبا تمام أراد معارضة جلِّ شعراء المعلقات وفحول الشعر، وكان من أهمهم امرؤ القيس الشاعر الذي عرف بقوة شعره وجمال شاعريته.

وقد أشار إلى أبيات المرقش في غزله مع محبوبته، ولم يكتف بذلك، بل لمح إلى شعراء العصر الأموي، كالراعي النميري في قصة الناقة، وقول عدي بن

(١) أنظر: الفهرست، ١٩٠/٤.

(٢) ديوان أبي تمام، ١٥٧/١.

(٣) ديوان امرئ القيس، ت: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ، ٧٤.

الرقاع في وصف الرياح المغبرة، كما استحضر بعض أقوال الفرزدق وذي الرمة ومسعود بن عمرو الأزدي وغيرهم من الشعراء[1].

وهو بهذه الإشارة إما معارضًا أو مبديًا تفوق ممدوحه على ممدوح شاعر قبله، أو تشبيه قوله بقول المشار إليه، أو مفتخرًا بما لديه على من سبقه، كل ذلك مما شاع عند الشعراء وانتشر، وهو من سجيتهم وطبعهم.

ومن صور الإشارة في شعره الإشارة إلى معاني الشعراء وألفاظهم مع قصد الإشارة للمعنى، والقصد بذكر الألفاظ، قال أبو تمام:

طلب المجد يورث المرء خبلاً وهمومًا تقضقض الحيزومان

فتـَراه وهو الخلي شجيًّا وتراه وهو الصحيح سقيما[2]

فأبو تمام يرى أن المجد والسؤدد لا يكونان إلا بعد عناء وتعب؛ أي: يورث صاحبه شيئًا من الجنون والهموم والفقر حتى ترى طالب المجد مشغولًا بالمعاني باحثًا عن الشرف في جميع أوقاته، وتراه سقيمًا وهو صحيح معافى.

والمعنى في البيت السابق مستوحى من قول لقيط بن يعمر:

لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه أهم يكاد سناه يقصم الضلعا[3]

فتشابهت المعاني والسبق للقيط بن يعمر، وقد ضمن الشاعر معاني لقيط، وأعاد ألفاظ البيت بأسلوب بديع معبر، وهو من المعاني الدارجة عند الشعراء منذ القدم.

---

(١) انظر: ديوان أبي تمام، ٢/١٥٠، ٣/١٠٠ وغيرها .
(٢) ديوان أبي تمام، ٢/ ١١٠.
(٣) مختارات شعراء العرب، لابن الشخير، ت: محمود زناتي، مطبعة الاعتماد، مصر – القاهرة، ط١، ١٣٤٤هـ، ١/ ٥.

ومن الإلماح في شعر أبي تمام الإشارة إلى قصة شاعر من الشعراء، كذكر الأطلال في شعر امرئ القيس وطرفة والأعشى ولبيد؛ حيث يقول:

أمواقف الفتيان تطوى لـم تزر شرفًا ولم تنـدب لهن صعيدا

أذكرتنا الملك المضلل في الهوى والأعشيين وطرفـة ولبيدا[١]

فوقوف الشاعر على الأطلال هيج مشاعره، وأندى قريحته حتى بكى الديار كما بكاها امرؤ القيس وطرفة بن العبد والأعشى ولبيد عند وقوفهم على الأطلال، وهي عادة أكثر الشعراء في تلك الحقبة من العصور الشعرية.

والإلماح في البيت مباشر لا يحتاج إلى تأويل لشهرة المشار إليهم في شعرهم، بل كانت مثلا يذكره الشعراء والأدباء عند تعريجهم لغرض الوقوف على الأطلال وذكر النسيب.

أما الوجه الرابع مما يتعلق بإشارة الشاعر للشعر العربي، فهو توظيف شاعر معروف في شعره، أو قصة من قصصه وتوظيفها في البيت لخدمة المعنى الذي يقصده الشاعر، كقوله:

عف الإزار تنال جـــارة بيتـه أرفـــاده وتجنب الأرفاثـا

عمرو بن كلثوم بن مالك الـذي ترك العلا لبني أبيه تراثا[٢]

أراد الشاعر ذكر مآثر ممدوحه مالك بن طوق، فشبهه بعمرو بن كلثوم؛ إذ عرف عنه القوة والبأس وكريم الأخلاق، وهو من رموز المعالي وخلودها، وهو أيضا من آباء الممدوح.

---

(١) ديوان أبي تمام، ١/ ٢١٨.

(٢) المصدر السابق، ١/١٧١.

فعوضًا عن وصف ممدوحه ذكر مآثر عمرو بن كلثوم وأشار إليه تشبيهًا لممدوحه، وأنه متصف بجلِّ صفاته نسبًا وكرمًا وشجاعة.

وقد اتبع الشاعر هذا المسلك في مواضع عدة، كذكر زهير بن أبي سلمى، وقصة مدحه لهرم بن سنان في معرض عتابه لمحمد بن سعيد كاتب الحسن بن سهل.(١)

ووظف شخصية زهير بن أبي سلمى في الهجاء كذلك، والحطيئة في مدح مالك بن طوق التغلبي، وجرير عند فخره بشعره، والفرزدق والأخطل مع بني أمية في تفضيلهم الأخطل على الفرزدق وهو مضري مثلهم، فلا غرابة في ذلك؛ إذ هو من طيء وأحمد بن أبي دؤاد من إياد(٢).

هـ – الإشارة إلى الأمثال في شعر أبي تمام :

المثل لون من ألوان الأدب الرفيع، يصور المعنى أحسن تصوير، يجمع بين قوة التأثير، وإيجاز التعبير، يحمل بين طياته قصة من القصص تصور معالم كثيرة من الأحداث السياسية الاجتماعية الموروثة، وتجسد مقولة موجزة تختصر القصة.

وهو اتصال بين الأشباه والنظائر في مختلف الأزمنة، يلجأ إليها الأدباء والشعراء ويضمنونها آدابهم وأشعارهم، تلميحًا أو تعريضًا أو كناية أو تشبيهًا للأحداث، وتعضيدًا للنص، وربط الفكرة ومؤازرتها، كما يفعل أبو تمام في كثير من أشعاره.

---

(١) المصدر السابق، ٤٣/١.

(٢) ديوان أبي تمام، ٣٢١/١، ٢٠٠/١، ١٣٠/٢ وغيرها.

وقد جاء المثل في كثير من نظم أبي تمام، فقال في قصيدته المشهورة (فتح عمورية)، يتواصل مع المثل القائل: "أعداء من الجرب"؛ حيث صور أن سبب الفتح هو سقوط أنقرة؛ إذ انتقلت العدوى إلى عمورية، ففتحت سريعًا؛ إذ يقول:

لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب(١)

وهو مثل يضرب بكل أمر سريع الانتشار والتفشي؛ إذ الجرب ينتشر سريعا بين الماشية وغيرها؛ حيث بين سرعة انتشار الفتوحات على يد المعتصم بأنها أسرع من انتشار عدوى الجرب، وجعل المثل من معرض الذم إلى معرض المدح والثناء وبيان عظمة الممدوح وبأسه.

وأبو تمام في توظيفه للتراث يكشف المعنى المراد ويكثفه تكثيفًا مباشرًا، ويستخدمه في شأنين: يستخدم الألفاظ، ويستخدم المعنى ويطوعه للمقصد في البيت، مع الإلماح للمثل، يقول أبو تمام:

الصبر أجمل والقضاء مسلط فارضوا به والشر فيه خيار(٢)

والمتأمل في البيت يظهر له أن الشاعر استخدم المعنى المشهور وطوعه للمعنى الذي يريده في البيت، وهو التهوين من وقع المصيبة في حال وقوع الشر، حتى يثبت للمدوح علو شأنه وقوته، وأن عدوه فرَّ من الجند عندما طلبوا منه المدد والنصرة، وتمثل بالمثل: "إن في الشر خيارا"(٣)، وشتان بين من كان سلاحه البأس في القتال ومن سلاحه الأمثال، والشاعر عوضًا عن جعلها للصبر والتسلية سماها في البيت الذي قبله بأمثال الذليل؛ حيث يقول:

---

(١) المصدر السابق، ١/٤٠.

(٢) المصدر السابق، ١/٣٢١.

(٣) مجمع الأمثال، ١/ ١١.

وضربت أمثال الذليل وقد ترى غير ذاك النقد والإمرار[١]

وقصد أبو تمام أنك قد علمت أن التدبير في الحرب لا يكون بضرب الأمثال، أو بالنقض والإمرار دون المواجهة وتحمل البأس.

و- الإلماح إلى الوقائع والشخصيات:

حرص الشعراء منذ القدم على معرفة تاريخ العرب وأيامهم وفرسانهم، واستعمال ذلك فيما يرمون إليه من ذكر الآثار وضرب الأمثال وربط المعاني في ذهن المتلقي[٢].

وقد كان أبو تمام أحد هؤلاء الشعراء، وأكثرهم معرفة بأيام العرب وآثارها ومفاخرها، حتى عد شعره مصدرًا من مصادر الأخبار والأشعار والأمثال والأيام، وقيل: من أراد معرفة خبر القوم فليعد إلى شعر أبي تمام، بل قيل أيضا: إنه من فاته كبير شيء من شعر جاهلي أو إسلامي أو محدث قرأه في شعر أبي تمام وطالعه[٣]؛ مما أثر على نظمه ومعاني شعره، فالمعاني مستوحاة ممن سبقه من الشعراء، إلا أنه يعمل ذهنه في كثير مما ينتجه ويصيرها إلى معاني جديدة، ومن مظاهر التلميح في شعره مدح أبي تمام أبا دلف العجلي والي دمشق أيام المعتصم، مدحه بمفاخر قومه في يوم من أيام العرب[٤].

---

(١) ديوان أبي تمام، ١/ ٣٢١.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، ت: محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت- لبنان- ط٥، ١٤٠١هـ، ١/ ١٧٧.

(٣) الموازنة بين أبي تمام و البحتري، بشر الآمدي، ت: السيد صقر وآخرون، مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر، ط١، ١٩٩٤م، ص٥٦.

(٤) تاريخ دمشق، ابن عساكر، ت: عمرو العمروي، دار الفكر، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٥هـ، ١٣٠/٤.

قال الشاعر:

إذا افتخرت يوما تميم بقوسها وزادت علـــى ما وطدت من مناقب

فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب(١)

حيث كانت تميم تفتخر بيوم قوسها الذي رهنته عند كسرى عندما أصابها القحط؛ حيث أرادت تميم الرعي في العراق، فكتبوا لوالي الحيرة أن يأذن لهم بالرعي، فاشترط أن تقدم لهم الرهائن، فلما بلغ ذلك حاجب بن زرارة، قال: ليس معي إلا قوسي فاسترهنوها منه، ووفى لهم بما وافقهم عليه، فصار ذلك محمودًا ومعدودًا في مناقب تميم.

أما ربيعة، فإنها هزمت في يوم ذي قار كسرى؛ حيث أسقطت ربيعة عروش الذين استرهنوا عندهم القوس؛ حيث فاقت سنن العرب في مفاخرهم بأيامهم على بعض، والشاعر جعله طريقاً لمدح ممدوحه وتفضيله على غيره.

أما الوقوف على الأطلال، فجاء على ثلاث صور:

١- في مطالع القصائد ببيت أو بيتين.

٢- أن تكون القصيدة من أولها لآخرها وقوفًا على الأطلال.

٣- أن يكون الوقوف ضمن أبياته، ملمحًا بوقوف سابق عند شاعر آخر، أو وقوفا يبتدعه وهو ضمن أبيات قصيدته، ويخدم الغرض من القصيدة.

وهذه المواضع يمكن دراستها في دراسة مستقلة، واستنتاج مواضع أخرى من خلال التتبع والنظر في حيثيات القصائد، أما ما يهمنا في هذه الدراسة فهو الموضع الثالث، وقد جاء في قصائد أبي تمام، منها قوله:

---

(١) ديوان أبي تمام، ١/ ١١٥.

صحبي قفوا مليتكم صحبا فاقضوا لنا من ربعنا نحبا

دار كأن يد الزمان بأن واع البلى نشرت بها كتبا (١)

فالشاعر لم يقف على الأطلال في أبياته فقط، بل وقف وألمح إلى وقوف امرئ القيس في معلقته، معبرا بأسلوب جديد كما هو دأب أبي تمام في كثير من قصائده، قال امرؤ القيس:

قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوا بين الدخول فحومل(٢)

وأبو تمام في وقوفه يمزج بين الغرض وذكر الأطلال والمآثر، وهو يتغزل، ويجعل وقوفه غزلًا ونسيبًا، وهو غرض القصيدة الذي أنشئت من أجله.

يقول سعد إسماعيل شلبي: "تمسك أبو تمام في أغلب أشعاره الجادة وموضوعاته الرسمية بالمقدمات الطللية...، بيد أن هذه المطالع جاءت في صورة جديدة، محافظة على الشكل الخارجي العام، مع التعديل والتحوير والتجديد في تفاصيلها وأجزائها"(٣).

**

(١) ديوان أبي تمام، ١/ ١٤٥.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص٢١.

(٣) مقدمة القصيدة في شعر أبي تمام والمتنبي، ص٥١ .

الخاتمـة

وبعد؛ فقد تناول البحث التلميح في البلاغة العربية، وفي شعر أبي تمام خصوصًا، أبو تمام الذي عرف عنه سعة اطلاعه، وتأثره بالمعاني التراثية التي نثرها في شعره بطرق مختلفة وصور متعددة مستوحاة من التراث العربي كثيرًا وغير العربي قليلًا.

وهذا الموضوع من الموضوعات التي تحتاج إلى تأمل في أبيات الشاعر ومعانيه، ثم الربط بمصادر التراث التي قصدها الشاعر؛ مما يجعل الباحث يعود إلى عدد كبير من الكتب التي دونت أيام العرب وأمثالها وشعرها.

ولا يقف الأمر عند هذا، فالتلميح جاء بصور متعددة؛ إذ منه ما يكون بمعنى، أو صورة، أو لفظة، أو مثل، أو جزء من مثل، أو بيت شعري، أو صورة شعرية مع قصد دلالة الملمح به، أو قصد جزء منها، أو تغيير الدلالة لمعنى آخر وصورة أخرى.

وقد بُنِي البحث على مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، جاء في التمهيد صورة التلميح، وصوره في البلاغة العربية، وتقاطعه مع التضمين والاقتباس والسرقات الشعرية، ثم بيان الفرق بين هذه المصطلحات وبين التلميح ومواطن الاتفاق والاختلاف بينهما، أما مباحث الدراسة، فقط حصرتها في مبحثين يجمعان بين مراتب التلميح في شعر أبي تمام من حيث الوضوح والغموض، والاتفاق والاختلاف بين المعنى الذي قصده الشاعر، والمعنى الملمح به، ثم مظاهر التلميح المتعددة والكثيرة في شعر أبي تمام وغيره من الكلام العربي البليغ.

وقد خلصت الدراسة إلى عدة نتائج:

- تنوع صور التلميح واتساع مدلولها؛ فمنها ما يكون عن طريق لفظة، أو معنى، أو صورة، أو آية قرآنية، أو معنى قرآني، أو حديث شريف، أو معنى في حديث

شريف، أو بيت شعر، أو صورة شعرية، أو لفظ شعري، أو يوم من أيام العرب، أو مثل، أو قول مشهور ذاع بين العرب، وغيرها من الصور المتعددة من تراث العرب وغير العرب.

- أن التلميح أعم وأشمل من الاقتباس والتضمين وجميع ما عده النقاد من صور السرقات الشعرية كما بينته في طيات هذه الدراسة.
- أن التلميح قد يكون مباشرًا، أو مضمنًا، يحتاج إلى تأمل واستكشاف للصورة الملمح بها.
- أن من التلميح ما يكون لبيان معنى، أو ربط صورة بصورة، أو غير ذلك مما جاءت الدراسة به.
- أن للتلميح طرائق عدة، فمنها ما يكون عن طريق الكناية والتعريض والتوجيه والاستعارة، أو خلاف مقتضى الظاهر، وغيرها من الألوان البلاغية؛ مما يدل على أن من بلاغة التلميح أنه يجمع بين غرضين بلاغيين في صورة واحدة أو معنى واحد.

وبعد؛ فهذا جهد المقل، وأسأل الله التوفيق والسداد، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

التوصيات:

يجدر بي أن أشير هنا إلى أهم التوصيات التي نتجت عن هذه الدراسة البلاغية، وهي:

١– دراسة كل مظهر من مظاهر التلميح بصورة مختلفة عن الأخرى، كالتلميح باللفظة، والتلميح بالصورة أو المعنى في شعر المتنبي الذي عرف عنه الذكاء والفطنة في توليد المعاني وتغيير الصورة المستوحاة من التراث العربي.

٢– أن من مقاصد استلهام التراث في النظم البليغ محاكاة الصورة، أو توليد المعاني، أو تغيير الدلالة، أو تشبيه صورة بصورة، وغيرها من المقاصد مما يستدعي إفرادها بدراسة مستقلة.

٣– يمكن أن نولد من التلميح صورا دراسية كثيرة ومتعددة، منها: التلميح الشعري وصوره في شعر شاعر، أو التلميح لما في القرآن الكريم من آية أو لفظة أو معنى أو دلالة، أو التلميح لما في الحديث النبوي الشريف من المعاني والألفاظ والصور والدلالات المتعددة، أو التلميح لمآثر العرب وأمثالهم ووقائعهم وأيامهم وأماكنهم وأطلالهم، وطريقة نظم الناظم لهذه المآثر في شعره أو نثره، وغيرها مما يتطلب دراسة مستقلة تلم بجميع أشتات الموضوع. والله أعلم.

**

ثبت المصادر والمراجع

- أبو تمام حياته وشعره، إبراهيم السمري، الشبكة الإلكترونية، ٢٠٢١م.
- أمثال العرب، المفضل الضبي، مكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ.
- الأمثال ، زيد بن عبد الله، دار سعد الدين، دمشق- سوريا- ط١، ١٤٢٣هـ .
- الإيضاح، جلال الدين الخطيب، تحقيق: محمد خفاجي، بيروت، لبنان، دار الجيل ، ط٣، ١٤٣١هـ.
- تاريخ الطبري" الرسل والملوك"، محمد الطبري، دار التراث، بيروت- لبنان- ط٢، ١٣٨٧هـ.
- تاريخ بغداد، أحمد البغدادي، تحقيق: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ.
- تاريخ دمشق، القاسم بن عساكر، تحقيق: عمرو العمروي، دار الفكر، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٥هـ .
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ابن أبي الإصبع العدواني، تحقيق: حفني شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة- مصر، د- ط، ١٣٨٣هـ .
- صحيح مسلم، تفسير التستري، سهل التستري، تحقيق: محمد السود، ط١، ١٤٢٣هـ.
- حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان- د- ط، د- ت.

– خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شقيو، مكتبة الهلال، بيروت– لبنان، ط٢، ٢٠٠٤م.

– خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ.

– ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي، تحقيق: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ.

– ديوان امرئ القيس، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ.

– شرح ديوان الحماسة، أحمد الأصفهاني، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ.

– صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق– سوريا، ط٥، ١٤١٤هـ.

– الطراز لأسرار البلاغة، يحيى العلوي، المكتبة العصرية، بيروت– لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ.

– العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت– لبنان، ط٥، ١٤٠١هـ.

– الفهرست، ابن النديم محمد بن إسحاق، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ط٢، ١٤١٧هـ.

– مجمع الأمثال، الميداني أحمد النيسابوري، تحقيق: محمد عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت لبنان، د– ط، ١٣٩٩م.

- مختارات شعراء العرب، ابن الشخير، تحقيق: محمود زناتي، مطبعة الاعتماد، مصر- القاهرة، ط١، ١٣٤٤هـ

- المستقصى في أمثال العرب، محمود الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان- ط٢، ١٩٨٧م.

- معجم البلدان، شهاب الدين ابن الحموي، دار صادر، بيروت- لبنان- ط، ١٩٩٥م.

- مقدمة القصيدة عند أبي تمام والمتنبي، شلبي سعد إسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٧٧م.

- الموازنة بين أبي تمام والبحتري، بشر الآمدي، تحقيق: السيد صقر وآخرون، مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر- ط١، ١٩٩٤م.

* * *